المذهَب التعبيرى

زعماء المذهب التعبيرى ● أهم سمات المذهب التعبيرى ● الإمبراطور جونس

منذ أن فاجأ فرويد العالم بنظرياته العجيبة فى علم النفس الحديث ، ومنذ أن أخذ يستكشف مجاهل العقل الباطن ومدى تحكمه فى تصرفات الإنسان بما يختزنه من التجارب والانطباعات التى ترجع إلى عشرات الآلاف من السنين ، بالإضافة إلى ما يختزنه من تجارب الماضى القريب وانطباعاته ، شرع الكتّاب المسرحيون يطبقون نظرياته التى آمنوا بها لما كشفت من أسرار النفس الإنسانية ، وما أظهرت من خفاياها .

زعماء المذهب التعبيرى :

ومؤرخو الأدب المسرحى مختلفون فيمن كان أول المؤلفين الذين أخذوا يطبقون المذهب التعبيرى فى المسرح . . وهم مع اختلافهم هذا متفقون على أنه ظهر فى ألمانيا فى أواخر القرن التاسع عشر (وبالضبط حوالى سنة ١٨٩١) ، وذلك حينما ألف فرانك ودكند F.Wedekind مسرحيته « اليقظة المبكرة » التى لم تمثل إلاّ فى سنة ١٩٠٦ ، والتى استعمل فيها بدعة الأقنعة القديمة وغيرها من الرموز التعبيرية ، والتى كتبها بهذا الأسلوب الخطابى الممتلىء بالمنولوجات الطويلة .

ثم جاء الكاتب السويدى سترندبرج ، ومؤلف مسرحية الأب (من المذهب الطبيعى) فكتب عدداً من المسرحيات التعبيرية من أروعها مسرحية « لحن الأشباح » .

ثم قامت حركة تعبيرية أخرى فى ألمانيا بين عامى ١٩١٥ و ١٩٢٥ ترمى إلى مقاومة المذهبين التأثرى (أو الانطباعى) والطبيعى ؛ وكان روح هذه الحركة التعبيرية الثانية هو لباب المذهب التعبيرى نفسه ، أى تصوير دخيلة النفس الإنسانية ، وعدم

الانخداع بالمظاهر السطحية التى قد لا تدل على شىء مطلقًا مما فطرت عليه نفس الشخص وما اندس فيها من غرائز وأسرار . . وهو نقيض ما يذهب إليه المذهبان التأثرى والطبيعى . وكان هدف التعبيريين الدعوة إلى مثل جديدة تنقذ المجتمع الألمانى مما أفسده به التأثريون والطبيعيون من ذلك التحلل الأخلاقى الذى أدى إليه تصويرهم مظاهر حياة الناس كما هى ، دون تعمق ما وراء هذه الحياة الظاهرية من أسرار ودخائل ، وما أدت إليه أصول المذهب الطبيعى خاصة من التماس هذه الصور فى أحط البيئات الإنسانية مما استوفيناه فى الكلام عن المذهب الطبيعى . ومن كتّاب هذه الحركة التى كانت أشبه برد فعل روحى لمقاومة مادية الطبيعيين وسطحيتهم ج . تللر G.Toller وبخر Becher وقيصر Kaiser ، ثم الكاتب الأمريكى جون هوارد لوسون .

ثم قامت فئة أخرى من رجال المذهب التعبيرى شغفت شغفاً شديداً بالتغلغل فى خفايا النفس البشرية واستكناه أسرارها ، وجعلت هدفها خلق مجتمع جديد وهيئة إنسانية أكثر سعادة . ومن رجال هذه المدرسة الكاتبان ورفل وكافكا . . ثم برز من رجالها أعظم كتّاب أمريكا المسرحيين أوجين أونيل ، ذلك الكاتب الذى لم يدع مذهباً من مذاهب الكتابة المسرحية إلا نبغ فيه حتى أحدث فى دنيا المسرح ضجيجًا لا يقل عما أحدثه هاوبتمان وبرنردشو من رجال المسرح الحديث . وأونيل هو مؤلف مسرحية «الإمبراطور جونس » أو « بروتس جونس » التى سنقدم لك ملخصها لتطبيق معالم هذا المذهب .

أهم سمات المذهب التعبيرى :

أما أهم سمات المذهب التعبيرى فاشتمال المسرحية التعبيرية على شخصية رئيسية واحدة تعانى أزمة روحية أو ذهنية أو نفسية ، على أن نرى البيئة والناس فى المسرحية من خلال نظرة تلك الشخصية الرئيسية إليهما . . على أن تكون نظرة متفرسة يترجمها مؤلف المسرحية ويعبر عنها بوسائله المسرحية الرمزية . وتتألف المسرحية التعبيرية عادة من عدد كبير متتابع من المشاهد والمناظر التى تصور (منازل الطريق) ، وهى المنازل التى يحط البطل فيها رحاله من حين إلى حين فى أثناء تجولاته فى دنياه الداخلية الخاصة وهو يعانى أزمته النفسية حتى تنتهى تلك المنازل بمصيره المحتوم الذى لا مفر له منه .

فنحن إذن لا نكاد نرى فى المسرحية التعبيرية إلاّ هذه الشخصية الرئيسية ، أما ما عداها من الشخصيات فتبدو لنا أشبه بشخوص الأحلام ، غير محددة المعالم . . شخوصاً تسبح فى عالم من الظلال ، وفى دنيا مهوشة مشوهة لا تكاد العين تستبين فيها شيئا كاملا ، أو منظرا تامّا . إنها شخصيات مساعدة لا أكثر . . كلها فى خدمة البطل لتتركز كل الأضواء عليه .

ولا بأس من أن يكون المشهد الأول من المسرحية التعبيرية من مشاهد الحياة الواقعية ، وذلك لتيسير الدخول فى الموضوع وعرض العقدة النفسية التى سينطلق منها البطل كالرصاصة ليندفع فى المناظر الكثيرة التالية إلى مصيره .

ولما كان الهدف من المسرحية التعبيرية هو تصوير دخيلة النفس وتجسيم تجارب العقل الباطن ، فليس مهمّا تصوير المظاهر الخارجية المحتملة الوقوع .

ويجب أن تكون شخصيات الروايات التعبيرية نماذج types . لا أفرادًا عاديين . ومن ثمة يسمون بأسماء رمزية ، أو ندعوهم : الرجل أو المرأة . . أو مستر صفر Zero أو مستر رقم واحد مثلا . . أو الشاعر . . أو الشرطى . . إلخ . . ولا نقول : زيدًا أو عمرو أو ليلى أو مستر هرمان . .

ويجب أن تكون اللغة مقتضبة . . يكثر فيها حذف أواخر الجمل . . وأن تكون لغة سريعة تلغرافية لا شىء فيها من البهارج والزخارف البلاغية . . بل يحسن أن تكون لغة دارجة فى معظم الأحيان حتى تبتعد عن تعمل اللغة الرسمية التى لا يستعملها الناس فى تفكيرهم الخاص ، وأن يكثر فيها التكرار والجرس الغنائى . . وأن تكون ذات لهجة حماسية تكثر فيها المنولوجات التى يعبر بها البطل عن أحاسيسه الداخلية وجيشانه النفسى .

أما التمثيل فيكون سريعاً شديد التحدر ، مهوشاً ، خياليّا ، متنوع المناظر ، مصحوباً بالموسيقى والأصوات الرمزية ، حافلاً بالحيل المسرحية كالأقنعة والملابس الغريبة والإضاءة التى تثير الخيال ، غنيّا بالمركبات الخاصة (الديكورات) خصبًا بالحركة الإيقاعية والتكوينات الإنشادية والأنغام الرتيبة ودق الطبول ، التى تهز قلب

البطل وترفع من أزمته النفسية وتزيدها حدة ، حتى نراه فى النهاية وقد أصبح شبه روح عارية ، ونلمس دخيلة نفسه وما تضطرب به من عوامل نجاحها ، وعلى المخرج أن يكثر من الأركان الشاحبة والمعتمة واستخدام ألوان قوس قزح فى تغيير المناظر وإتقان إظهار الأشباح وأطياف الوحوش والجن والزواحف مما يساعد فى تصوير دخيلة البطل .

ولا يفوتنا أن نحذر كاتب المسرحية التعبيرية من التفلسف أو التحليل والتعليل والتعليق وإظهار شخصيته على ألسنة الشخصيات كما يفعل الكتاب الواقعيون . . بل عليه أن يتشبه بكتّاب المذهب الطبيعى وإن خالفهم من حيث تصويره لأعماق النفس الإنسانية ، فى حين أنهم لا يصورون إلاّ السطح والحياة المادية فقط .

والمسرحيات التعبيرية إن لم تكن حسنة الإخراج بدت رتيبة مملة ، بل سخيفة مربكة، لكنها مع ذلك أحسن وسيلة لتصوير دخائل النفس الإنسانية تصويراً مسرحيّا يعيننا على فهم الخلجات العميقة غير المنطقية مجسمة فوق المسرح .

وإخراج المسرحية التعبيرية كثير النفقة وبحاجة إلى الجهد والصبر والمزاج الشاعرى . . هو بحاجة أيضاً إلى جمهور مثقف له دراية بالدراسات النفسية . .

الإمبراطور جونس :

مسرحية تعبيرية كتبها أوجين أونيل سنة ١٩٢٠ فى ثمانية مناظر .

لا يخطر ببالك أن هذا الإمبراطور جونس بطل هذه المسرحية هو واحد من أولئك الأباطرة الذين يزخر بهم التاريخ القديم أو التاريخ الحديث . . بل لا يخطر ببالك أنه حاكم عظيم طاغية له أسطول كبير وجيش ضخم وملك واسع . . إن الإمبراطور جونس ليس شيئاً من هذا أبدًا . . لأنه لص زنجى اسمه الكامل بوتس جونس ، وكان يوماً ما حمالاً يحمل حقائب المسافرين فى قطارات البولمان فى الولايات المتحدة الأمريكية. وكان قوى البنية ضخم الجثة جبار المنظر . . له عينان آمرتان ، تشعان إجرامًا وسطوة . . وقد ارتكب جرائم قتل كثيرة فى أثناء قيامه بعمله فى تلك القطارات الفاخرة وحوكم ، وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة . . ثم استطاع الفرار من وجه العدالة ، وانتهى به المطاف إلى هذه الجزيرة النائيةمن جزائر المارتنيك ، من مجموعة

جزائر الهند الغربية ، حيث يكدح مواطنوه الزنوج الإفريقيون فى زراعة القصب ليحصلوا على قوتهم بالمشقة والعرق والدموع . . واستطاع جونس أن يسيطر على هؤلاء المساكين بما كان يظهره من البطش والبأس والقوة البهيمية ؛ ثم لم يلبث أن أصبح صاحب الكلمة النافذة بينهم . لقد أصبح حاكماً بأمره ، لا ينازعه فى الجزيرة منازع . ولم تكن القوة وحدها هى التى جعلت له هذا السلطان كله ، بل كانت الخرافات سلاحًا هامّا من أسلحته . لقد أفلح فى إقناع هؤلاء البسطاء السذج . . وإقناع نفسه فيما بعد ، بأنه لا يمكن أن يناله سوء ، بل لا يمكن أن ينفذ الرصاص فى جسمه . . الرصاص العادى الذى ينطلق من البنادق والمسدسات فيقتل الناس ويضع حدّا لحياتهم . . لا . . إن هذا الرصاص العادى لا يمكن أن ينفذ فى جسم جونس . . ولا يمكن أن يضع حدّاً لحياته الخطرة البهيمية ؛ إنما الذى يقتله ويقضى عليه هو شىء واحد لا غيره . . إنه رصاصة فضية . . رصاصة مصنوعة من الفضة الخالصة ، يحتفظ بها جونس نفسه . . وهى وحدها التى تستطيع أن تقضى عليه وتضع حدّا لحياته . . وبهذا آمن أولئك الزنوج . . وبهذا آمن جونس بالكذبة التى هو صانعها وهو مبتدعها .

واستطاع جونس أن يسخر هؤلاء البسطاء ، فبنوا له قصرًا يقيم فيه ويحكمهم منه ، ويعيش فيه كما يعيش الأباطرة المملكون ، فله فى القصر حاشية تخدمه ، وله ياور من البيض ، بل من الإنجليز ، ومن أهل لندن (!) اسمه سمذرس . . لعل غريزته الإنجليزية هى التى جعلته يلعب هذا الدور ، ليتخذ من إمبراطوره بأكمله مخلب قط لمآربه الإنجليزية الخالصة (!)

وحينما تبدأ حوادث هذه المأساة ، أو قل حوادث تلك النهاية . . لأن المأساة هى نهاية هذا الإمبراطور الزنجى (الشيال !) القاتل . . الفار من العدالة . . يكون عامان قد مضيا له فى التسلط على أهل الجزيرة الذين أرادت العناية الإلهية أن تتداركهم آخر الأمر ، فأجمعوا أمرهم على الثورة والخلاص من ربقة العبودية التى فرضها عليهم هذا الفهد الأسود الجبار .

ففى مساء أحد الأيام يوقظ سمذرس الإنجليزى سيده الإمبراطور الزنجى فيهرع هذا

إلى غرفة عرشه الفسيحة وقد ارتدى معطفًا رسميّا أزرق مرصعًا بشارات وأزره كبيرة وصغيرة من نحاس وذهب ، وبنطلونًا شديد الحمرة زاهى اللون ونعلين كبيرتين فضفاضتين لهما مهموزان . . أى : (مهمازان !) من النحاس الأصفر . . وقد تدلى من حزامه مسدس كبير حلى مقبضه بعدد من اللآلىء . .

ويستوى الإمبراطور المعدود من أرباب السوابق منتفخًا على عرشه الذهبى المخملى البرتقالى اللون ، واضعًا قدميه فوق حشية برتقالية اللون أيضًا ، ملقاة أمامه على الأرض، وقد امتدت ممشاتان طويلتان من الحصير القرمزى عن يمين وشمال ، من كرسى العرش إلى باب الغرفة .

ويقول سمذرس لصاحب الجلالة : إن الزنوج جميعا فى حركتهم الثورية الهائلة قد هربوا من القصر ومن المزارع ولاذوا بالتلال المجاورة ، وإنه يعجب كل العجب لحضرة صاحب الجلالة كيف لم يلاحظ أن القصر أصبح خاويًا على عروشه ، فلا حاشية ولا وزراء ، ولا قادة . . بل . . لا أحد أيضًا . . فإذا سأله جونس عما أقعده عن اللحاق بهم ، قال له سمذرس : إنه الوفاء لعمله . . فإذا ضحك الإمبراطور ساخرًا، غضب سمذرس ، أو أظهر الغضب ، وأراد أن يمن على مولاه بأنه أول من لقيه يوم أن جاء وحيدًا طريداً لا نصير له ، فأخذ بيده وشد من أزره . . وهنا . . يسارع الإمبراطور فيأمر هذا الإنجليزى البارد بأن يلزم حد الأدب . . فإذا جبن الإنجليزى البارد وحاول أن يقصر فلا يتكلم . . أجبره جونس على الكلام ، وصارحه بأنه مجرم قاتل فار من وجه العدالة . . مثله . . وأنه لم يساعد جونس من أجل سواد عينيه ولا سواد وجهه . . بل ساعده لكى يكون مخلب قط له . . فالأموال التى يبتزها جونس من هؤلاء الزنوج المساكين يذهب شطر منها إلى سمذرس فخر الرجال البيض (! . .) وهو شطر إن لم يعدل الشطر الذى يذهب إلى جيب جونس إلا أنه مال ضخم لم يكن يخطر لسمذرس على بال . . أما لماذا لم يهرب سمذرس هو الآخر ، فلعل ذلك راجع إلى حلمه بالاستيلاء على أموال جونس حينما تفلح الثورة . . ويطمئن جونس صاحبه بأن هذا هو رابع المستحيلات . . فقد احتفظ جونس بأمواله فى مكان . . أو فى بنك لا يعرفه إلا هو . .

ثم يتحدثان عن الرصاصة الفضية . . ويخرجها من جيبه فيدللها كأنها طفلته المحببة . . فإذا أراد سمذرس أن يتناولها ليتفرج عليها نهره جونس ورمقه بعينى نمر ، ثم ردها إلى مكانها . . وذلك لأن سمذرس رجل إنجليزى أبيض غدار . . لا أمان له . . وجونس ليس من البله بحيث يأمنه على شىء ، وهو ليس من البله أيضا بحيث يقبل أن يظل إمبراطورًا فى هذه الأرض المنكودة . . إنه ادخر أمواله لينفقها فى أرض أسعد حالا . . فإذا لم يستطع . . فالرصاصة وحدها هى ملجؤه الوحيد . . الأخير . .

ويعودان إلى الحديث عن فرار حاشية القصر ، ويؤكد سمذرس أن هذا قد حدث بالفعل ؛ وإذا شاء الإمبراطور فيلضغط على زر الجرس ليرى إن كان ثمة من يجيب . فإذا فعل جونس ولم يلبه أحد ، وأيقن من أنها الثورة قال : إنه يستقيل من وظيفة الإمبراطور هذه ، وفى الحال ، بعد أن كان فى نيته البقاء فيها ستة أشهر أكثر مما نهض بها ! . .

ويسأله سمذرس الذى لا عيش له فى الجزيرة بدونه عن طريقة الهرب مع وجود هذا الزعيم الزنجى (لم Lem) على رأس الثائرين ، وليس للهرب من سبيل إلا باختراق تلك الغابة السوداء الموحشة التى لا يستطيع العارف بها أن يخترقها فى أقل من اثنتى عشرة ساعة ، وأن الزنوج وعلى رأسهم (لم) سيتعقبونه ككلاب الصيد ؟ . . ويجيبه جونس بأنه أعرف الناس بجميع أطراف الغابة ، إذ طالما صاد فيها ، بل هو يستطيع أن يذرعها مغمض العينين ؛ وإنه سينطلق فيها حينما يرخى الليل سدوله . . حتى إذا كان فى طرفها الآخر فسوف يركب تلك السفينة الفرنسية التى تبحر إلى المارتنيك ، وأن أيدى أعدائه لن تمتد إليه مطلقا . . وإلاّ . . فهناك هذه الرصاصة الفضية .

وهنا يسمع جونس دق طبول بعيدة ، فيرهف أذنيه ، ويشيع فى وجهه إحساس غريب مفاجىء ؛ فإذا سأله سمذرس قال له : « إنها طبول الزنوج يدقونها قبل أن يحاربوا لتبعث الشجاعة فى قلوبهم . . وهم يأتمرون الآن فى اجتماعهم الدموى على صوت تلك الطبول . . وعندما يشتد الظلام فينطلقون فى أثرهما كالأشباح وأطياف الجن فى مسالك الغابة . . إن هذا شىء مفزع يرسل العرق مدرارًا . . إنهم الآن يقومون برقاهم السحرية . . ليسحروك !! » .

ويحاول جونس أن يستهزىء بسمذرس وبالزنوج . . إنه صديق الغابة وأشجارها . . وصديق القمر الذى يتخلل أغصانها أيضاً . . ثم هو رجل مؤمن بالمسيح وبالكنيسة من يوم أن عمد فيها . . وهذا يكفى لحمايته من أراجيف هؤلاء الوثنيين ومن سحرهم . . إلاّ أن سمذرس يهزأ بإيمان صاحبه ، ثم يسأله : أين كان إيمانه ذاك حينما كان جلالة الإمبراطور يقتل ويسطو ويمتص دماء الناس ؟! . . ويضحك جونس . . ولا يبالى أن يقول : إن الكنيسة هى جزء من اللعبة . . وإنه يستطيع أن يضع السيد (. .) على الرف مؤقتًا إذا كان الأمر أمر نقود يكسبها !

ثم يقول لسمذرس إ: نه يترك له القصر الإمبراطورى ينهب منه ما يشاء قبل أن يقدموا . . فإذا أشار عليه سمذرس بألاّ يخرج من الباب الأمامى ، رفض جونس لأنه لا يزال إمبراطوراً . . وهو لا يخرج إلاّ من حيث دخل أول مرة . ثم يتناول قبعة بناما فيجعلها فوق رأسه ، ويضع يديه فى جيبى بنطلونه ، وينصرف وهو يصفر لحناً هادئاً . . فيذهل سمذرس ، ويتمنى لو سحقه الزنوج !

٢

ثم يرتفع الستار عن ليل مظلم . . غابة بعيدة يفصلنا عنها فضاء تغطيه رمال وحصباء وحشائش ، وإذا جونس المسكين يدخل فينحط فوق الرمال مجهداً مكدوداً ، بعد أن يطمئن إلى أن أحداً لا يتعقبه ، ثم يخاطب قدميه قائلاً : إنهما يجب أن يستريحا ، لأن الرحلة بعيدة ، والمدى واسع !

ثم يسمع صوت الطبول الرتيب (طم طم . . طم طم) فيظهر شيئًا من عدم المبلاة ، ثم يطمئن ، ويقول : إنهم على بعد أميال كثيرة . .

ثم يبحث عن الحجر الأبيض فلا يجده ، ويجد فى البحث عنه بلا جدوى . . لقد كان خبأ تحته صندوقاً به شىء من الطعام . . وهو الآن جوعان . . هو يريد أن يكون قويّا لرحلته الطويلة الشاقة . . ونراه يعاتب الظلام الذى أرخى سدوله مبكراً . . ثم يتناول ثقاباً ويحكه فى بنطلونه فيشتعل . . . ثم ينظر حوله . . لكنه سرعان ما يطفئه . . ويتهم نفسه بالجنون ، لأن إشعال الثقاب قد يمكّن الزنوج من اكتشاف مكانه . .

إذن . . لقد بدأ الفزع يساوره . . وها هى دقات الطبول (طم طم . . طم طم) تزداد شدة . . ثم ينظر حوله فيرى أشباحا سوداء قصيرة كالأقزام تخرج من الغابة . فينزعج . . ويتناول مسدسه ويهددها بأن تنصرف . . وإلا أطلق النار عليها . . وهو يطلق النار بالفعل . . وهنا . . تولى الأشباح هاربة فى الغابة .

ولكن صوت الطبول يزداد شدة ، ويقول والأشباح مولية : إن هى إلا خنازير الغابة السوداء التى اكتشفت طعامه فالتهمته . . وقد أتت لتجد رزقاً آخر . . ثم يأسف لإطلاقه الرصاص . . فقد سمعه الزنوج بلا ريب . . وعليه . . فلينطلق داخل الغابة . .

٣

ثم يرتفع الستار عن ليل موحش ـ فى الساعة التاسعة ـ والقمر النحاسى يطلع ونوره يتخلل الأشجار . . ونرى فى جانبٍ من الغابة شبح رجل زنجى جالس فوق الرمال وهو يرمى بزهر النرد بعد أن يشخشخه فى يده بشدة . . ثم نرى جونس يدخل فجأة وقد بدا عليه التعب . . وقد ضاعت قبعته البناما . . ونسمعه يهذى . . ولا يمضى زمن طويل حتى يرى الرجل الزنجى . . فيعجب ! . . إنه هذا الزنجى جف Jeff الذى اعتدى عليه جونس من قبل ، والذى ظن أنه ذبحه بموساه . . إن جونس يبتهج ، ويتحدث إلى جف بالذى كان . . لكن جف لا يجيبه . . فهل كان شبحه فحسب؟ . . ويحاول جونس أن يجعله يتكلم . . لكن الشبح يظل صامتاً . . وهنا يتناول جونس مسدسه ويطلقه عليه . . لكن الشبح يتوارى بين الشجر . . ويذهل جونس ، ويبدو عليه الرعب الشديد ، فيقذف نفسه فى الغابة حيث يضل الطريق الصحيح . . وها هو ذا صوت الطبول يشتد . . وكأنه يدنو ويلاحقه !

٤

لقد أسفر البدر الآن . . ونحن أمام طريق فسيح بين شطرى الغابة . . وها هو ذا جونس يقبل فى حالة يرثى لها ، وقد بدا عليه الإعياء ، وتمزقت ملابسه . . وهو ينبطح على الرمل مكدوداً متعبًا . . إنه يلعن هذا المعطف الثقيل ، ويخلعه عنه ويقذف به

بعيدًا . . ثم هذا الحذاء الكبير الفضفاض ، ذو المهمازين . . لقد كان يجعل خطاه ثقيلة ، وهو يخلعه ويلقى به جانبًا . .

إنه يريد ألا يعطله شىء حتى لا يقع فريسة فى أيدى من يقصون أثره ! . . ألا ما أبشع وظيفة الإمبراطور هذه ! . . ألا ما أبشعها وأثقل تبعاتها !

ثم يتحدث جونس إلى نفسه فيربأ بها أن تكون كنفوس هؤلاء الزنوج غير المتمدينين الذين لم يتعمدوا فى الكنيسة ولم يستمعوا إلى وعاظها مثله . . لكنه يفضل ألا يتحدث هكذا ، لأنه فى حاجة إلى الراحة لا إلى الكلام . . لقد ذهب من الليل نصفه ، وفى آخر النصف الثانى سيكون عند الشاطىء . . وسينجو ! . .

لكنه لا يكاد يستلقى حتى نرى مجموعة من المسجونين تبرز من بين الأشجار فجأة وهم يحملون فؤوسهم وكوريكاتهم ، وقد لبسوا ملابس السجن المخططة ، ومن خلفهم حارس السجن يطرقع بسوطه فى الهواء . . ثم ما هى إلا لحظة حتى يأمرهم بالعمل فى الطريق فيأخذون فى عملهم فى حركات آلية وئيدة بحيث لا نكاد نسمع لهم ركزا . . ثم يراهم جونس فجأة فيسقط فى يده ، ويحاول أن ينهض ليلوذ بأذيال الفرار . . لكنه لا يستطيع ، فينادى سيده المسيح ! ! . .

ويتقدم الحارس فيأمره بأن يأخذ مكانه بين المسجونين . . ويطيع جونس وهو يدمدم بشىء من الشتائم المكبوتة . . فيشوى الحارس كتفيه بسوطه . . وهنا يزمجر جونس الذى يحسب أنه يحمل فأساً كالآخرين ، ويرفع يديه ليهوى على الحارس (الأبيض ! . .) فيحطم رأسه ؛ لكنه بعد أن يفعل لا يرى فى يديه شيئاً . . فيرجو السجناء أن يعطوه فأساً . . لكنهم يقفون كالأصنام . . أو كالأشباح . . لا ينطقون . . وعند ذلك يتناول مسدسه ثم يطلقه على الحارس . ولا يكاد يفعل حتى تتلاشى أشباح المسجونين ، وينطبق شطرا الغابة . . ويطلق جونس ساقيه للريح . . لأن أصوات الطبول تدق بشدة ، وتقترب كثيراً ! . .

٥

إننا الآن فى الساعة الواحدة صباحاً ، وضوء القمر ينسكب فوق هذه الدائرة الخالية

من الأشجار وسط الغابة ، وقد بسقت الأشجار فلا نرى إلّا جذوعها الضخمة حول الدائرة التى برز فى وسطها جذع شجرة لم يبق منه مجتثوه إلا شيئًا يسيرًا . . ثم يأتى جونس الذى اشتد به الإرهاق والفزع ، وازدادت ملابسه تمزقًا وتقطيعًا ، ولم يبق من حذائه إلا آثار نعلين . . يأتى فيجلس فوق بقايا الجذع وسط الدائرة ، ثم يحمل رأسه بين يديه الواهيتين ، ويأخذ فى مناجاة يسوع المبارك ، وقد ثبت عينيه فى أعماق السماء . . قائلاً (!) :

« مولاى . . مولاى . . مولاى يا يسوع المبارك . . استمع دعائى ، أنا ، هذا الآثم . . أعلم أننى أجرمت . . أعرف . . وذلك حينما صوبت مسدسى إلى جف حينما كان يرمى زهر النرد وأرديته . . وأعلم أننى حينما رفعنى أولئك الزنوج البلهاء إلى عرشهم كنت أبتز أموالهم بكل ما وسعنى الابتزاز ، وإنى على ذلك لنادم . . فسامحنى . . اغفر لهذا المذنب الضعيف . . ثم . . ثم احمنى منهم . . واجعلهم بعيدين عنى . . قف هذه الطبول التى ترن فى أذنى . . تلك الطبول ذات الدقات المسحورة» .

ثم نراه يقف ويقول ، وكأنما شعر أن السيد المسيح قد استجاب دعاءه : « لا شك أن السيد سيحمينى من سحرهم بعد هذا » . . ويجلس ثانية ثم ينظر إلى نعليه ، وقد برز إبهامه من إحداهما . . فيتوجع . . ويقول إنه لم يعد فيه غناء له . . فيخلعهما . . وليمش جلالة الإمبراطور المسكين حافيًا . . فهذا أسهل له . ويخلعهما بالفعل ، ثم يطفق يتأملهما . . فى حين نرى أشباحًا كثيرة تبرز فجأة من بين جذوع الشجر . . إنها أشباح زراع أغنياء فى زى أبناء القرن المنصرم . . بينهم شخص نظيف البزة يبدو أنه مندوب من الحكومة لرئاسة هذا المزاد الذى أقيم هنا لبيع الرقيق ، وقد أقبل السراة والأعيان والحسان الغيد من كل صوب لشراء ما يحتاجون إليه من العبيد . . وها هم أولاء يحيطون بالجذع العتيق ، وها هى كوكبة من العبيد جىء بها لتباع فى المزاد بالفعل . . وبينهم امرأة تحمل طفلا راح يرضع ثديها ، وقد أخذ الزراع يثنون على العبيد المساكين . . المعروضين للبيع . . أما الشبان والحسان فقد راحوا يتبادلون النكات ؛ ثم يبدأ المزاد . . ويعلن الرئيس أنه يفتتحه ببيع جونس . . وها هو ذا يأمره بالوقوف على الجذع . . ويأخذ رئيس المزاد فى وصف محاسن الرجل الواقف بينهم فيقول : إنه قوى

مفتول العضل ، ذو يدين صالحتين لجميع أعمال الزراعة . . « انظروا إلى كتفيه . . وظهره . . وهذا العضل المكتنز انظروا إلى . . » إلى آخره . .

ويشرع العطاء تلو العطاء ، ويبدو أن كل واحد حريص على أن يشترى المسكين جونس . . الذى نراه وقد تبدل من فزعه شجاعة فجأة . . فراح يقول :

« ماذا أيها البيض ؟ . . أهذا مزاد إذن ؟ . . أتبيعون واحداً من البشر كما كنتم تفعلون قبل حرب العبيد ؟ ! . . » ثم يقبض على مسدسه فى اللحظة التى يسلمه المنادى إلى أحد المتزايدين . . ويقول جونس وهو ينظر إلى المنادى ثم المزارع : « أفأنت تبيعنى وأنت تشترينى ؟ . . بل سوف أريكم أننى زنجى حر . . ألا قاتلكم الله ! » . .

ثم يطلق الرصاص مرة على المنادى ومرة على المشترى . . ولكن ماذا؟ . . إن الغابة تنغلق . . والأشباح تولى . . والظلام يسود ! . . يا للهول ! . . إنه لم يكن مزاداً إذن ! . .

ويصيح جونس المسكين مفزوعًا . . ويطلق ساقيه للريح ! . .

وصوت الطبل الرتيب لا يزال يملأ الآفاق ! . .

٦

ثم يرتفع الستار عن مأوى فى الغابة بين أشجارها الضخمة عرشت عليه عساليج النباتات الزحافة فحجزت عنه ضوء القمر إلاّ قليلاً . . الساعة الآن الثالثة صباحًا . . وجونس يدخل متخاذلاً ولا تكاد قدماه تحملانه وهو يئن أنينًا موجعًا ويقول :

« رباه ! . . ماذا عساى أصنع الآن بعد أن لم يبق فى المسدس إلاّ الرصاصة الفضية؟ . . فأنا إن أطلقتها أصبحت مقتولاً لا محالة ! . . إن الظلام يشتد من حولى ، فأين القمر ؟ ! . . ألا تريد تلك الليلاء أن تنتهى يا إلهى ؟ . . » .

ثم يقول : إن المكان صالح لأن يستريح فيه ، وإنه سيستريح بالفعل ، وليأت الزنوج . . وليمسكوا بتلابيبه . . لأن هذا لا يهم . . ولا يكاد يفعل حتى نرى أشباحًا كثيرة ، وزنوجًا عديدين . . عرايا . . عرايا إلا مما يستر الحقوين . . إنهم يكظون

المكان وهم يبرزون من بين الشجر . . يرقصون على دق الطبول التى تملأ الدنيا بنغمتها الرتيبة . . (طم طم . . طم طم) . . ولا يكاد جونس يرى هذه الأشباح حتى يذهل عن نفسه ، ويهزه الخوف هزّا عنيفًا ، لكنه لا يستطيع أن يهتز كما يهتز الآخرون إلى الأمام ثم إلى الوراء . . ولكن ضوء القمر الخافت يتضاءل فيعم الظلام . . ثم لا نرى أشباحا . . غير أننا لا نزال نسمع أنين جونس . . ثم نراه يسلم رجليه للريح عاديًا عدوًا شديدًا فى صميم الغابة . . أما (طم طم . . طم طم) . . فتشتد أكثر من ذى قبل .

٧

الساعة الآن الخامسة صباحًا . . ونحن فى طرف الغابة القريب من النهر ، وقد أخذت أصباغ البنفسج تلون صفحة الماء البعيد وتضفى ظلالاً على ضخرة بارزة قريبة وجذع شجرة مجاورة . . وهذا صوت جونس الذى لم يظهر بعد يثير الرثاء بأنينه فى قلوبنا . . إنه يتوجع ويشكو . . وها هو ذا يدخل محزونًا مهمومًا يحمل فى قلبه أثقالاً من هموم روحه المتعبة ، ويقلب نظراته المنهوكة فى صفحة النهر . . ثم يتجه نحو الصخرة التى قامت فى مكانها كالمذبح فى الكنيسة . . ثم يركع أمامها . . ويحدث نفسه :

«ما هذا الذى أنا صانعه ؟ . . ما هذا المكان يا ربى ! . . هذا الصخر ؟ . . ذلك النهر ! . . يخيل إلىّ أننى أعرف هذا كله ، وأننى جئت إلى هذا المكان من قبل ! . . » .

ثم يضطرب فجأة . . ويضرع إلى الله أن يحميه . . ثم يبتعد عن المذبح . . ثم ينطوى على نفسه فوق الأرض ويتلوى فى خوف هستيرى . ثم نرى زنجيّا يبرز من خلف الأشجار عاريًا إلاّ من فروة غريبة تستر حقويه . إنه هذا الطبيب الساحر من أهل الكونغو . . لقد ترك الفروة تتدلى من أمام فى شكل غريب ، وقد صبغ جسمه بأجمعه بدهان صارخ الحمرة ، وركب على جانبى رأسه قرنى أيل ، وحمل فى إحدى يديه شخشيخة من العظم ، وفى الأخرى عصا سحرية ربط فى طرفها حزمة من ريش الكوكو وفى صدره وأذنيه وساعديه عدد كبير من الخرز .

ويتقدم هذا الرجل الغريب حتى يكون بين جونس وبين المذبح ، ومن ثمة يشرع فى

رقصة أغرب منه . . رقصة تنسجم حركاتها مع (طم طم) . . وهنا يثب جونس نصف واقف . . كالمشلول . . لكن الرجل لا يبالى به . . بل يشرع مع الرقص فى غناء رتيب . . ثم نراه يهرب هنا ويهرب هناك ، وكأنما ثمة شياطين تجرى خلفه . . فهو يهرب منها مفزوعًا ، وكأنما شر قريب يدنو منه . . وفجأة نسمعه يصرخ صراخاً مبحوحاً هستيريّا . . وعند ذلك نرى جونس وقد نام نومًا مغناطيسيّا كاملاً ، وهو يصنع كما يصنع الرجل تمامًا . . ويصيح كما يصيح ويضرب بيديه ورجليه كما يضرب . . لقد دخلت فى نفسه روح الرقصة حتى أصبحت روحه هو . . ثم يتطور الموقف . . إن قوى الشر تطلب قربانًا . . ولابد من ذلك لتهدئتها . . وها هو ذا الطبيب الساحر يشير بعصاه إلى الشجرة المقدسة ثم إلى النهر من ورائها . . ثم إلى المذبح . . . ثم إلى جونس فى قسوة ووحشية . . ويبدو أن جونس يفهم معنى ذلك كله . . إنه هو الذى يجب أن يكون قربانًا ، وهو لهذا يسجد حتى يمس بجبينه التراب بى يدى الساحر قائلاً :

« رحمتك . . رحمتك يا إلهى . . تلطف بهذا الآثم ! . . » .

ولكن الساحر يتجه نحو النهر ، ويشير بذراعيه كأنما ينادى إلهًا من أعماقه ، ثم يخطو إلى الوراء وذراعاه ما تزالان ممدودتين . . وإذا رأس تمساح ضخم يبرز من شاطىء النهر . . وعيناه الخضراوان تلمعان نحو جونس . . ثم يمس الطبيب كتفى جونس بعصاه فيتمدد هذا على بطنه ، ويقترب من الوحش الفاغر فاه شيئًا فشيئًا ، وهو يئن فى أثناء ذلك أنينًا متصلاً يقول : « الرحمة يا إلهى . . الرحمة . . » .

وهنا يبدو جزء أكبر من التمساح وفمه مفغور كأنه يهم أن يبتلع جونس . . والساحر يصيح صياحاً عالياً منسجماً مع طم طم . . طم . طم طم . طم !

ويشتد الفزع بجونس فيجأر بالدعاء إلى السيد المسيح كى ينقذه . . وهنا يتذكر الرصاصة الفضية . . فيتناول المسدس ويصوبه نحو عينى التمساح الخضراوين قائلاً : « إنك لم تصل إلىّ بعد » .

ثم يطلق الرصاصة فيرتد التمساح إلى النهر ، ويختفى الطبيب الساحر خلف الشجر . وينطرح جونس على الأرض مخفيًا وجهه فى التراب . . وقلبه ينبض مع دقات (طم طم) . .

٨

نحن الآن أمام المنظر الثامن . . ولكن فى ساعة الفجر . . ودقات الطبول تزداد جلبة . . وهذا الزنجى (لم) قد وقف ومن حوله شرذمة من الجنود ، وإلى جانبه ذلك الإنجليزى الخائن الأبيض الوصولى البارد سمذرس . . أما لم . . فلا تستره إلا تلك الرقعة حول حقويه . . يتدلى منها هذا المسدس ، وذلك الحزام الذى يحمل فيه الرصاص ، والجميع يغطون رؤوسهم بقبعات كبيرة من خوص النخل ، وقد حمل كل منهم بندقية . . ثم نرى أحد هؤلاء الجنود يلهث فى مثل صوت الخنازير وهو يشير إلى الجهة التى انسرب منها جونس فيقبل لم وسمذرس لينظرا . .

ويقول سمذرس : « إن هذا هو المكان الذى انسرق منه جونس إلى الغابة حيث اخترقها سالمًا إلى شاطىء البحر ، فى حين أنتم أيها البلهاء عاكفون على دق طبولكم طول الليل . . وعاكفون على سحركم تنفثون وتوسوسون . . » .

ولكن لم يقول له : « إنهم قد أمسكوا به ! . . » .

ويقول سمذرس وكأنه لم يفهم : « إذن فلماذا لا تنطلقون وراءه فى الغابة لتقبضوا عليه ؟ . . ماذا تنتظرون ؟ . . » .

ويجيبه لم : « إنهم قد أمسكوا به ! . . » .

ويقول سمذرس : إن جونس أكثر لباقة من هؤلاء الزنوج جميعًا ، وإنه يمقته من كل قلبه . . لكنه لا ينكر عليه تلك اللباقة .

ثم يسمع الجنود حركة بين الأغصان فيصوبون بنادقهم فى كل مكان . . ويذهب كل منهم فى جهة . . وفى هذا السكون المزعج يسألهم سمذرس عما إذا كانوا يظنون أنه هو ؟ . . فيقول لم : « إننا قد أمسكنا به . . ش . . شو . . » .

وهنا تنطلق فى الغابة بنادق كثيرة . .

ثم يبتسم لم . . ويقول لسمذرس : إنهم وجده . . لكنهم وجدوه ميتا . . لقد حصل رجاله ـ رجال لم ـ على عدد من الرصاص الفضى ، لأن الرصاص الرصاصى لم